سارتر ... وجائزته

بقلم محمود تيمور

كان حديث « سارتر » ، خلال الفترة الأخيرة ، يحتل مكان الصدارة فى سائر الأرجاء ، حيثما كان فكر وكان اطلاع .

لقد انطبق عليه فى يومنا الحاضر ما وصف به « المتنبى » فى عصره الخالى ، حين قيل فيه : مالىء الدنيا وشاغل الناس » .

ولم يكن لهج الصحف والأندية بحديث « سارتر » لأنه منح جائزة « نوبل » أسنى الجوائز الفكرية وأعلاها كعبا فى العالم كله فحسب ، بل لأنه كذلك رفض هذه الجائزة ، واستعلى عليها مادة ومعنى !

ولعلنا نحن ، أهل العروبة بخاصة ،وأهل الشرق بعامة ، فى تطلعنا الى الحياة الحرة الكريمة ، واستشرافنا للتعايش السلمى العالى ـ أجدر أن نجد فى أنفسنا لصاحبنا « سارتر » من العاطفة والهوى مايرفعه درجات . فهو ممن امتشقوا القلم فى سبيل المثل العليا ، ينافح عن القيم التى تستهدف خير الانسانية قاطبة ، وطالما نادى بالحرية الشخصية ، وهتف بتحرير الفرد والمجتمع من العبودية ، وطالب بالعدالة الاجتماعية والاقتصادية ، وقام فى مناسبات شتى مقاوم شريفة من قضايا الشعوب الناهضة التى تناضل من اجل كرامتها ومن أجل حقها فى الوجود .

و« سارتر » فوق ذلك أديب وفيلسوف ، اعتملت فيه نزعة الادب ونزعة الفلسفة معا ، ودار بين النزعتين فى نفسه وعقله صراع ، وقد ظهر أثر هذا الصراع فيما كتب من مسرحيات وقصص ، فانك تراه فى أثنائها يحاول فرض فلسفة ، واثبات نتائج ، وان القارىء ليجوس منها فى أفكار واتجاهات غامضة ، كأنما يجوس بها فى ضباب ، ولكنه فى بعض قصصه يشفق على قرائه ، ويتلطف بهم ، ويفصح لهم ، كما فى قصته « الجدار » التى تعرض حرب التحرير فى « أسبانيا » ، اذ يصور اناسا محكوما عليهم بالموت ، ينتظرون مصيرهم المقدور ، فيصف كلا منهم وصفا رائعا لا يسلس الا لأديب طويل الباع .

والنزعة الادبية عند « سارتر » تتجلى أو فى ما تتجلى فى كتابه الأخير : « الكلمات » ، ذلك الذى آثر فيه البساطة والوضوح ، على غير ما عهد منه ، وجرد فيه قلمه ليكتب تاريخ حياته ، فاذا هو كانما يخلع شخصيته أمامه ، ويأخذ فى تحليلها كما يحلل شخصية هو عنها غريب . فى هذا الجزء الذى صدر من « كلماته » . يصور نفسه فى زمن الطفولة واليفاعة ، فيحدثك بأنه لم يعرف للأبوة طعما ، وانه لم ير أباه الا رسما معلقا على جدار ، وانه نشأ فى كنف امه وجده يدللانه ماوسعهما التدليل ، ومع ذلك استطاع أن يبنى له شخصية مستقلة ، فتعلم القراءة بنفسه ، وشغف بالمطالعة أيما شغف ، وسمع من بعض الزوار انه سوف يغدو كاتبا . وقد نجح « سارتر فى اخراج صورة دقيقة لمراحل التطور فى شخصيته الخصبة ، تاركا نفسه على سجيتها فى التصوير والتحليل ، فكشف عن عبقرية أديب له مرقم فنان أصيل .

ولا ريب فى أن فنه الأدبى الانسانى فى كتابه « الكلمات » كان فى طليعة الاسباب التى أفضت بالحكام « النوابلة » الى تقديمه على منافسيه لجائزة « نوبل » هذا العام ، الى جانب اقرارهم له بأنه طبع العصر بطابعه ، اذ كان لاعماله الغزيرة بالأفكار ، النابضة بروح الحرية ، الباحثة عن جوهر الحقيقة ، أثر عميق فى الفكر المعاصر .

على أن « سارتر » وان اثبت قدرته الادبية الفنية ، كان شأنه بين نزعتى الادب والفلسفة كشأن من تتقاسمه نزعتان ، هيهات له أن يعدل بينهما وان حرص ، فلا بد أن تتفوق احداهما وتتملك ، وقد خرج « سارتر » على الناس بفلسفة الوجودية ، وكان هو نموذجا حيا لفلسفته ، بها آمن ، وعلى نهجها سلك ، وبوحيها استهدى ، واليها دعا ، فاحتشد من حوله ومن حولها شيعة واتباع .

وقد شب الجدل فى مذهب « الوجودية » كما يشب فى كل مذهب فكرى جديد له نصيبه من الأصالة ، وهو الى أن يكون منحى فلسفيا فى الحياة ، أقرب منه الى أن يكون مذهبا مستقلا فى الادب .

لباب « الوجودية » ــ كما قلت حين عرضت فى غير هذا المقال « مذاهب الأدب » ــ هو اشباع رغبات النفس ، والتملص من قيود ذلك المجتمع الذى يحمل بعضه تبعات بعض آخرين ، وبذلك يصبح كل امرىء وهواه ، يصنع بيده دنياه ، حتى يكون عنها مسئولا وحده ، لا ينازعه فى مسئوليته أحد .

تحتج الوجودية بأن المرء كان موجودا قبل ان تحدد له وظيفة ، ويناط به عبء ، فوجوده سابق لوظيفته ومهمته ، بل ان وجوده هو الذى يخلق الوظيفة والمهمة ، فلزام أن يكون المرء مسئولا بادىء بدء عن تصرفاته وعن علائقه بمن حوله وبما حوله ، وان يكيف هو هذه العلائق والتصرفات طوع وجوده هو ، لا طوع رقابة وتوجيه وسلطان .

فهذه الدعوة الوجودية تصارحك بأنك سيد نفسك . ولك الرأى كل الرأى فى الانطلاق فاياك ان تكون لأحد ارادة عليك ، واذكر أنك موجود ، وأن لنفسك عليك حقا ، وما ينبغى لك أن تزدرى ما حبتك الطبيعة به من حق الوجود .

والغاية من دعوة الوجودية هى اعلاء الحرية الفردية الى الأوج ، واطلاقها الى أبعد مدى ، وحصانة النفس من مؤثرات الوراثات والعادات والتقاليد ، وحماية الذات من أن تعترض سبيلها عقبة ، أو يتسرب الى صفاء وجودها كدر .

ولعل الخليفة الفاطمى « الحاكم بأمر الله » كان يمثل « الوجودية » فى التاريخ ، فهو ذلك الفرد الذى شاء أن يكون سيدا مطلقا لا تزاحمه فى السيادة سلطة شعب ، ولا يزعه وازع من قيم الدين والاخلاق والاجتماع . وانه لينصت الى صوته وحده ، ويستوحى وجوده وحده ، ويحارب كل ما يحد من سلطانه ، ومايحول بينه وبين الانتفاع بحريته ، حتى انه ليثور على نفسه حين تنازعه الى المأثور من عواطف الرحمة والاشفاق . وهو يمضى فى تجربته الوجودية المنطلقة ، فيفرض الأوامر الشاذة ، عسى أن يبلغ بها هدفه الذى يتوهمه من نصرة الحق ، واقامة العدل ، ونشر الخير بين الناس .

خطرت فكرة الوجودية المذهبية أول ما خطرت « لهيدجار » فيما يقول بعض النقاد ، ثم نهض بها « سارتر » و « ألبير كامى » ومن اليهما من الادباء ، وانبسط ظلها على انتاج أدبى لقى حظوة من القراء .

تلك هى « الوجودية » كما عرضتها من قبل ، وبقى الحديث فيما صنع فيلسوفها « سارتر » من رفضه لجائزة « نوبل » .

فاى شىء أعطى « لسارتر » ؟

لقد أعطى التقدير من هيئة عالمية لها وزنها واعتبارها ، وسواء على الناس أقبل ما أعطى له أم رفض ، فليس المعول فى التقدير أن يتلقاه صاحبه بالرضا أو يأباه ، ولكن مناط الأمر أن هذه الهيئة العالمية الرفيعة قد اعترفت « لسارتر » بما له من قيمة أدبية ووزن فكرى ، أو توجت الاعتراف بهذه القيمة وذلك الوزن . وأن هذا التتويج ليعد مزية للحكام النوابلة ، بأنهم أحسنوا الاختيار ، وأنصفوا فى الحكم ، ولا عليهم بعد ذلك أن يقع حكمهم من المحكوم له أو عليه موقع رفض أو قبول .وحسبهم من الأمر أنهم أرادوا الا يحملوا على ضمائرهم من العبء أو من الوزر ما حمله المجمعيون الفرنسيون فى أحد العهود السالفة ،حين فاتهم أن يضموا الى عضوية المجمع علم الادب : « موليير » ، فأقاموا له بعد رحيله عن الدنيا نصبا تذكاريا كتبوا عليه : « لم ينقص مجده شيئا ، ولكن نقص مجدنا » .... فهؤلاء الحكام النوابلة لم يفقدوا شيئا بما صنع « سارتر » ، لأنهم لم يقدموا له منصبا ، ولم يلقوا عليه تبعة ، ولكنهم قدموا لاهل الفكر تقديرا لرجل من رجالات الفكر ، وهم بعد ذلك بمنأى عن مذمة أو ملام !

واى شيء رفض « سارتر » ؟

انه رفض الجائزة ، ولا يعنى هذا الرفض انه قد فاته منها شيء ، الا ماوراءها من الغنم المادى المقرر لها ، وهو عرض زائل وان كثر فى العد والحساب ، أما الغنم الادبى أو المعنوى ــ وهو الأثر الباقى على الزمن ــ فقد ناله كاملا ، اذ قدمت له الشهادة ، وتم له اعلان الحكم ، وقضى الامر ، واصبح هو ــ على الرغم من رفضه ــ صاحب جائزة « نوبل » لهذا العام ، دون منافسيه من اقطاب المفكرين والادباء .

ولست ادرى : ائمة أثر كان يحدثه قبول « سارتر » للجائزة ، فوق الاثر الذى كان لاعطائه اياها ؟ لعله لو قبلها لما اثار القبول اشكالا ، ولما فتح للتساؤل مجالا ، ولعل الرفض هو الذى جعل موضوع الجائزة ابعد صيتا ، واندى صوتا . ولولا اننا نربأ بالاديب الفيلسوف ان يكون قد اراد ذلك عمدا ، لا نفسح الظن للقول بانه شاء التاثير برفض الجائزة فوق التاثير باعطائها ، أو انه شاء ان يكسب بهذا الاباء معنى التفوق على الجائزة وحكامها وخطابها جميعا ! ...

ولقد تناقلت الصحف عن « سارتر » أن رفضه كان عن اقتناع بانه لا يقبل مكافآت رسمية تقديرا لأعماله الفكرية ، وكذلك رووا عنه أنه يتجافى عن الجوائز التى يمثل حكامها جبهات ومعسكرات وتيارات فى السياسة العالمية ، حتى لا يفسر قبوله بالانحياز يمنة أو يسرة ، وهو يحرص على الاستقلال ، ويؤثر ان يكون أمينا على شخصيته الفكرية أن تثفرق بها الاتجاهات المتضاربة بل المتذائبة فى عصرنا المشهود .

والحق أن لكل سلوك آدمى دوافع باطنة ، غير ما يبدو من الظواهر السافرة ، ومن هذه الدوافع ما يخفى حتى عن صاحبه عينه ، وقد رفض « شو » فيما مضى جائزة « نوبل » بادىء بدء ، ولما سئل فى ذلك ، أجاب : « واين كنت من قبل ؟ » . وكانما عز عليه أن يتقدمه الى نيل الجائزة من يخالهم دونه ، فهل ترى « سارتر » لا يختلف عن « شو » الا فى أن أحدهما عرف سر نفسه فافشاه ، وان الآخر لم يبده جهرة ، أو لم يكن ذلك السر ظاهرا عنده ؟ أولئك هم الحكام النوابلة اجازوا « البير كامى » قبل « سارتر » ، وان « سارتر » لزعيم الوجودية ورائدها ، وما « البير كامى » الا طليعة الحواريين فيها ، فهل نقم « سارتر » فى وليجة نفسه على أن يسبق الفرع أصله ؟

وأياما كان الأمر ، فاننا نرجو للقائمين على جائزة « نوبل » أن يستطيعوا اقرار **الثقة بعملهم العظيم ، وان يلتمسوا أسباب العدالة فى أدق مستوياتها ، حتى تتحصن لجائزتهم نبالتها ، تقضى بها محكمة قيم انسانية أصيلة ، للأدب والفكر ، لا يحمل تقديرها على جنوح الى صراع سياسى أو اقتصادى مرهون بيومه وملابساته ، حتى يكون حكمها مبرءا من كل ظنة ، منزها عن كل شوب ، له من الوزن والاعتبار ما يعلو به على ضباب الخلافات والحزازات ... والشبهات !**

محمود تيمور